



وزارة التعليم العالي

جامعة المجمعة

عمادة خدمة المجتمع

**فرائد الشيخ الطنطاوي**

( رحمه الله )

المقدمة : -

إعداد

فريق عمل بالعمادة

إن الحمد لله نحمده ولا نجحده ونشكره ولا نكفره ونستعين به ونستنصره ونستهديه ونستغفره وصلاة وسلامًا على المبعوث رحمة للعالمين محمد eورضوان الله على أصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

أهمية البحث :-

ترجع أهمية البحث في دراسة شخصية الكاتب الكبير علي طنطاوي والوقوف على كتابته الجميلة التي أثرت الأدب السعودي من ناحية الأدب العربي من ناحية أخرى بجانب كبير من الثقافة والأدب البارز في حياته ، رحم الله هذا الأديب .

هدف البحث :-

دراسة حياة وشخصية هذا الأديب والوقوف على جوانب القوة في حياته ودراسة حال الصحافة أثناء وفاته وآرائهم في هذا الأديب السعودي المشهور .

مصادر البحث :-

اعتمدت في كتابه البحث عن عدة كتب استعرتها من المكتبة ( ذكريات علي طنطاوي ) أربعة أجزاء وبعض المقالات الموجودة على الانترنت للوقوف على كتابات الصحف يوم وفاة هذا الأديب .

منهجية البحث :-

اتبعت في دراسة الأديب علي طنطاوي على الوصف والتحليل والنقل حيث تكلمت عن حياته وشخصيته ومؤلفاته وموته .

تحاول الباحثة في هذا البحث رسم صورة الشيخ الكبير والعلامة الكبير الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله – من مولده وحياته وكتاباته وبناته وجانب من شخصيته العظيمة وتحدثت في البحث عن أقوال الصحف لحظة وفاته وتحدثت أيضا عن مؤلفاته وأشهر الصحف التي تعامل معها ، واختصرت على قدر ما أستطيع .

المبحث الأول

مولده ونشأته :

هو علي بن مصطفى الطنطاوي، ولد في مدينة دمشق في 12 حزيران 1909، لأسرة ذات علم ودين. أصله من مدينة طنطا في مصر حيث انتقل جده محمد بن مصطفى في أوائل القرن التاسع عشر إلى دمشق، وكان عالماً أزهرياً حمل علمه إلى ديار الشام فجدد فيها العناية بالعلوم العقلية ولاسيما الفلك والرياضيات. وقد نزح معه ابن أخيه أحمد بن علي جدّ علي الطنطاوي وكان هذا إمام طابور متقاعد في الجيش العثماني.أما أبوه الشيخ مصطفى فكان من العلماء المعدودين في الشام، انتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. وكان مديراً للمدرسة التجارية في دمشق، ثم ولي منصب رئيس ديوان محكمة النقض عام 1918 إلى أن توفي عام 1925 وأسرة أمه أيضاً من الأسر العلمية في الشام، كثير من أفرادها من العلماء المعدودين ولهم تراجم في كتب الرجال.. خاله محب الدين الخطيب الكاتب الإسلامي الكبير الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتي (الفتح) و(الزهراء) وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع القرن العشرين تلقى علي الطنطاوي دراسته الابتدائية الأولى في العهد العثماني، فكان طالباً في المدرسة التجارية، ثم في المدرسة السلطانية الثانية وبعدها في المدرسة الجقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة 1923 حيث دخل مكتب عنبر الذي كان بمثابة الثانوية الوحيدة في دمشق ومنه نال البكالوريا سنة 1928. ثم ذهب إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، ولكنه لم يتم السنة وعاد إلى دمشق في السنة التالية فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة 1933 كان على الطنطاوي من الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ، والدراسة في المدارس النظامية، فقد تعلم في هذه المدارس إلى أن تخرج من الجامعة. وكان يقرأ معها على المشايخ علوم العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم.

عندما عاد الطنطاوي إلى الشام دعا إلى تأليف لجان للطلبة على غرار تلك التي رآها في مصر فألفت لجنة للطلبة سميت (اللجنة العليا لطلاب سورية) وانتخب رئيساً لها وقادها نحواً من ثلاث سنين. وكانت هذه اللجنة بمثابة اللجنة التنفيذية للكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال ضد الاستعمار الفرنسي لسوريا ابتدأ الطنطاوي التدريس في المدارس الأهلية في دمشق وهو في الثامنة عشرة من عمره، وقد طبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية الوطنية في دروس الأدب العربي عن (بشار بن برد) في كتاب عام 1930 بعد ذلك عين معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة 1931 حين أغلقت السلطات جريدة (الأيام) التي كان يعمل مديراً لتحريرها، وبقي في التعليم الابتدائي إلى سنة 1935. وكانت حياته في تلك الفترة سلسلة من المشكلات بسبب مواقفه الوطنية وجرأته في مقاومة الفرنسيين وأعوانهم في الحكومة عام 1936 انتقل الطنطاوي للتدريس في العراق، فعين مدرساً في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية، ولكن روحه الوثابة وجرأته في الحق فعلا به في العراق ما فعلا به في الشام، فما لبث أن نقل مرة بعد مرة، فعلم في كركوك في أقصى الشمال، وفي البصرة في أقصى الجنوب. وبقي يدرس في العراق حتى عام 1939، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرساً في الكلية الشرعية فيها حتى عام 1937 ثم رجع إلى دمشق فعين أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر، ولكنه لم يكف عن مواقفه التي سببت له المتاعب، فنقل إلى مدرسة دير الزور سنة 1940 ولبث فيها فصلاً دراسياً أبعد بعدها قسرياً بسبب خطبة حماسية ألقاها في صلاة الجمعة ضد المستعمر الفرنسي.

عام 1941 دخل الطنطاوي سلك القضاء، فعين قاضياً في النبك مدة أحد عشر شهراً ثم قاضياً في دوما (من قرى دمشق)، ثم قاضياً ممتازاً في دمشق مدة عشر سنوات فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام، ثم مستشاراً لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر وقد اقترح الطنطاوي يوم كان قاضياً في دوما وضع قانون كامل للأحوال الشخصية فكلف بذلك عام 1947، وأوفد إلى مصر مع عضو محكمة الاستئناف الأستاذ نهاد القاسم (الذي صار وزيراً للعدل أيام الوحدة)

فأمضيا تلك السنة كلها هناك حيث كلف هو بدرس مشروعات القوانين الجديدة للمواريث والوصية وسواها. وقد أعد مشروع قانون الأحوال الشخصية كله وصار هذا المشروع أساساً للقانون الحالي في سوريه وكان القانون يخول القاضي الشرعي في دمشق رياسة مجلس الأوقاف وعمدة الثانويات الشرعية، فصار الطنطاوي مسؤولاً عن ذلك كله خلال العشر سنين التي أمضاها في قضاء دمشق، فقرر أنظمة الامتحانات في الثانويات الشرعية، وكان له يد في تعديل قانون الأوقاف ومنهج الثانويات، ثم كلف عام 1960 بوضع مناهج الدروس فيها فوضعها وحده بعدما سافر إلى مصر واجتمع فيها بالقائمين على إدارة التعليم في الأزهر واعتمدت كما وضعها انتقل الطنطاوي عام 1963 بعد انقلاب الثامن من آذار، وإعلان حالة الطوارئ في سورية، إلى المملكة العربية السعودية ليعمل مدرساً في كلية الشريعة وكلية اللغة العربية في الرياض، ومنها انتقل إلى مكة، للتدريس فيها ليمضي فيها وفي جدة خمساً وثلاثين سنة بدأ الطنطاوي هذه المرحلة الجديدة من حياته بالتدريس في كلية التربية بمكة، ثم لم يلبث أن كلف ببرنامج للتوعية الإسلامية، فترك الكلية وراح يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وتفرغ للفتوى يجيب على أسئلة وفتاوى الناس في الحرم في مجلس له هناك أو في بيته ساعات كل يوم، ثم بدأ برنامجيه (مسائل ومشكلات) في الإذاعة، و(نور وهداية) في التلفزيون اللذين قدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ إذاعة المملكة وتلفزيونها يعتبر الطنطاوي من أقدم المحاضرين الإذاعيين في العالم العربي، إذ بدأ يحاضر من إذاعة الشرق الأدنى من يافا من أوائل الثلاثينات، ومن إذاعة بغداد سنة 1937، ومن إذاعة دمشق سنة 1942 لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة وتلفزيونها نحواً من ربع قرن متصل من الزمان نشرالطنطاوي أول مقالة له في جريدة عامة في عام 1926، ولم ينقطع عن النشر في الصحف منذ ذلك التاريخ، فشارك في تحرير مجلتي خاله محب الدين (الفتح) و(الزهراء) حين زار مصر عام 1926، ثم كتب في جريدة فتى العرب ثم في (ألف باء) ثم كان مدير تحرير (الأيام) التي أصدرتها الكتلة الوطنية سنة 1931 وخلال ذلك كان يكتب في (الناقد) و(الشعب) وسواهما من الصحف. وفي سنة 1933 أنشأ الزيات المجلة الكبرى (الرسالة) فكان الطنطاوي واحداً من كتابها واستمر فيها عشرين سنة إلى أن احتجبت سنة 1953. وكتب في مجلة (المسلمون) و(النصر) وفي مكة كتب في مجلة (الحج) وفي جريدة (المدينة)، ونشر ذكرياته في (الشرق الأوسط) على مدى نحو خمس سنين. وله مقالات متناثرة في عشرات الصحف والمجلات التي كان يعجز هو نفسه عن حصرها وتذكر أسمائها.

شارك الطنطاوي في طائفة من المؤتمرات منها حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدتها جامعة الدول العربية في دمشق في عهد الشيشكلي، ومؤتمر الشعوب العربية لنصرة الجزائر، ومؤتمر تأسيس رابطة العالم الإسلامي واثنين من المؤتمرات السنوية لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا. وأهم مشاركة له كانت في المؤتمر الإسلامي الشعبي في القدس عام 1953 والذي تمخضت عنه سفرته الطويلة في سبيل الدعاية لفلسطين، وقد جاب فيها باكستان والهند والملايو وإندونيسيا

وفاته

رحيل الداعية والأديب علي الطنطاوي غرس جرحًا في قلب الأمة لن يندمل، فقد كان مثالًا للمسلم الغيور على دينه، الذي جمع بين الشهرة والتواضع والأدب والأخلاق والمواهب، وإنّا بفقدانه نفقد علمًا بارزًا من أعلام الدعوة والأدب الإسلامي، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر... هذه سيرته فأين السائرون؟ وتلك مؤلفاته فأين القارئون؟ وتلك سبيله فأين المقتفون؟

آثر علي الطنطاوي ترك الإذاعة والتلفزيون حينما بلغ الثمانين. وكان قبل ذلك قد لبث نحو خمس سنين ينشر ذكرياته في الصحف، حلقةً كل يوم خميس، فلما صار كذلك وقَفَ نشرَها (وكانت قد قاربت مئتين وخمسين حلقة) وودّع القرّاء فقال: "لقد عزمت على أن أطوي أوراقي، وأمسح قلمي، وآوي إلى عزلة فكرية كالعزلة المادية التي أعيشها من سنين، فلا أكاد أخرج من بيتي، ولا أكاد ألقى أحداً من رفاقي وصحبي".

ثم أغلق عليه باب بيته واعتزل الناس إلا قليلاً من المقربين يأتونه في معظم الليالي زائرين، فصار ذلك له مجلساً يطل من خلاله على الدنيا، وصار منتدى أدبياً وعلمياً تُبحث فيه مسائل العلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ، وأكرمه الله فحفظ عليه توقّد ذهنه ووعاء ذاكرته حتى آخر يوم في حياته، حتى إنه كان قادراً على استرجاع المسائل والأحكام بأحسن مما يستطيعه كثير من الشبان، وكانت - حتى في الشهر الذي توفي فيه- تُفتتح بين يديه القصيدة لم يرَها من عشر سنين أو عشرين فيُتمّ أبياتَها ويبين غامضها، ويُذكَر العَلَم فيُترجم له، وربما اختُلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة أو في معناها فيقول: هي كذلك، فيُفتَح القاموس المحيط (وكان إلى جواره حتى آخر يوم في حياته) فإذا هي كما قال!

ثم ضعف قلبه في آخر عمره فأُدخل المستشفى مرات، وكانت الأزمات متباعدة في أول الأمر ثم تقاربت، حتى إذا جاءت السنة الأخيرة تكاثرت حتى بات كثيرَ التنقل بين البيت والمستشفى. ثم توفي بعد عشاء يوم الجمعة، 18 حزيران عام 1999م الموافق 4 ربيع الأول 1420 هـ، في قسم العناية المركزة في مستشفى الملك فهد بجدة، ودُفن في مكة المكرمة في اليوم التالي بعدما صُلّي عليه في الحرم المكي الشريف.

يعد الشيخ علي الطنطاوي أحد رموز الدعوة الإسلامية الكبيرة في العالم العربي وشخصية محببة ذائعة الصيت نالت حظاً واسعاً من الإعجاب والقبول، وله سجل مشرف في خدمة الإسلام والمسلمين.

مؤلفاته

كان الطنطاوي أديباً وداعية يتمتع بأسلوب سهل جميل جذاب متفرد لا يكاد يشبهه به أحد، يمكن أن يوصف بأنه السهل الممتنع، فيه تظهر عباراته أنيقة مشرقة، فيها جمال ويسر، وهذا مكنه من طرح أخطر القضايا والأفكار بأسلوب يطرب له المثقف، ويرتاح له العامي حمل الطنطاوي على كاهله راية الإصلاح الديني في الميادين كافة: التشريعي والسياسي والاجتماعي، فكان في ما يؤلف ويحاضر الداعية المسلم الذي يهجم على الخرافات والتقاليد البالية والسلوكيات المستوردة؛ فيصحح عقائد الناس ويقوم أخلاقهم، كما كان يتصدى لظلم رجال السلطان وأصحاب الدعوات الهدامة بمنطق الحق القويم وسلاسة الأسلوب وعذوبة العبارة مما قيض له قبولاً عند عامة الناس، كما نصب له في الوقت نفسه كثيراً من المعادين والشانئين. وكتبه في ميادين الإصلاح المختلفة كثيرة متعددة الاتجاهات تشهد له بعمق الفكرة وطول الباع وسلامة المنهج، وقد سبق زمانه في طروحاته الإصلاحية على صعيد التشريع والسياسة والاجتماع رزق الشيخ الطنطاوي خمساً من البنات، وقد كان لفقد إحداهن (بنان) وقد اغتالتها يد الإرهاب الآثم في مدينة آخن الألمانية أكبر الأثر في نفسه، ولكنه احتسبها عند الله. وتمسك بالصبر والتسليم بقضاء الله

ترك علي الطنطاوي عدداً كبيراً من الكتب، أكثرها يضم مقالات مما سبق نشره في الصحف والمجلات، وهذه هي أهم مؤلفاته (مرتبة هجائياً، مع سنوات صدور الطبعة الأولى منها):

أبو بكر الصديق (1935)

أخبار عمر (1959)

أعلام التاريخ (1-7) (1960)

بغداد: مشاهدات وذكريات (1960)

تعريف عام بدين الإسلام (1970)

الجامع الأموي في دمشق (1960)

حكايات من التاريخ (1-7) (1960)

دمشق: صور من جمالها وعِبَر من نضالها (1959)

ذكريات علي الطنطاوي (8 أجزاء) (1985-1989)

رجال من التاريخ (1958)

صور وخواطر (1958)

صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق) (1960)

فتاوى علي الطنطاوي (1985)

فصول إسلامية (1960)

فِكَر ومباحث (1960)

في أندونيسيا (1960)

في سبيل الإصلاح (1959)

قصص من التاريخ (1957)

قصص من الحياة (1959)

مع الناس (1960)

مقالات في كلمات (1959)

من حديث النفس (1960)

من نفحات الحرم (1960)

هُتاف المجد (1960)

وقد نشر حفيده، مجاهد مأمون ديرانية، بعد وفاته عدداً من الكتب التي جمع مادتها من مقالات وأحاديث لم يسبق نشرها، وهي هذه الكتب:

فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني) (2001)

فصول اجتماعية (2002)

نور وهداية (2006)

فصول في الثقافة والأدب (2007)

فصول في الدعوة والإصلاح (2008)

البواكير (2009)

ومن الكتب التي قام بتحقيقها ما يلي:

بشار بن برد. مع الناس. رسائل الإصلاح. مسرحية أبي جهل.

ذكريات علي الطنطاوي. (ثمانية أجزاء). أخبار عمر. بغداد. حكايات من التاريخ

(من أدب الأطفال).

أعلام التاريخ (سلسلة للتعريف بأعلام الإسلام). تعريف عام بدين الإسلام.

صور وخواطر. من حديث النفس. الجامع الأموي. الهيثميات. التحليل الأدبي. من التاريخ الإسلامي. دمشق. مقالات في كلمات.

سيرته العلمية

بدأ علي الطنطاوي بالتعليم ولمّا يَزَلْ طالباً في المرحلة الثانوية، حيث درّس في بعض المدارس الأهلية بالشام وهو في السابعة عشرة من عمره (في عام 1345 هجرية)، وقد طُبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية العلمية الوطنية في دروس الأدب العربي عن "بشار بن برد" في كتاب صغير صدر عام 1930 (أي حين كان في الحادية والعشرين من العمر).

بعد ذلك صار معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة 1931 حين أغلقت السلطات جريدة "الأيام" التي كان يعمل مديراً لتحريرها، وبقي في التعليم الابتدائي إلى سنة 1935. وكانت حياته في تلك الفترة سلسلة من المشكلات بسبب مواقفه الوطنية وجرأته في مقاومة الفرنسيين وأعوانهم في الحكومة، فما زال يُنقَل من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية، حتى طوّف بأرجاء سوريا جميعاً: من أطراف جبل الشيخ جنوباً إلى دير الزور في أقصى الشمال.

ثم انتقل إلى العراق في عام 1936 ليعمل مدرّساً في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية (التي صارت كلية الشريعة)، ولكن روحه الوثّابة (التي لم يتركها وراءه حين قدم العراق) وجرأته في الحق (ذلك الطبع الذي لم يفارقه قط) فعلا به في العراق ما فعلاه به في الشام، فما لبث أن نُقل مرة بعد مرة، فعلّم في كركوك في أقصى الشمال وفي البصرة في أقصى الجنوب. وقد تركَتْ تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينسَها، وأحب "بغداد" حتى ألّف فيها كتاباً ضم ذكرياته ومشاهداته فيها.

بقي علي الطنطاوي يدرّس في العراق حتى عام 1939، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرّساً في الكلية الشرعية فيها عام 1937، ثم رجع إلى دمشق فعُيِّن أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر (الذي صار يُدعى "مدرسة التجهيز"، وهي الثانوية الرسمية حينئذ بالشام)، ولكنه لم يكفَّ عن شغبه ومواقفه التي تسبب له المتاعب، وكان واحدٌ من هذه المواقف في احتفال أُقيم بذكرى المولد، فما لبث أن جاء الأمر بنقله إلى دير الزور! وهكذا صار معلماً في الدير سنة 1940، وكان يمكن أن تمضي الأمور على ذلك لولا أنه مضى في سنّته ومنهجه في الجرأة والجهر بالحق. وكانت باريس قد سقطت في أيدي الألمان والاضطرابات قد عادت إلى الشام، فألقى في الدير خطبة جمعة نارية كان لها أثر كبير في نفوس الناس، قال فيها: "لا تخافوا الفرنسيين فإن أفئدتهم هواء وبطولتهم ادّعاء، إن نارهم لا تحرق ورصاصهم لا يقتل، ولو كان فيهم خير ما وطئت عاصمتَهم نِعالُ الألمان"! فكان عاقبة ذلك صرفه عن التدريس ومنحه إجازة "قسرية" في أواخر سنة 1940.

هذه الحادثة انتهت بعلي الطنطاوي إلى ترك التعليم والدخول في سلك القضاء، دخله ليمضي فيه ربع قرن كاملاً؛ خمسة وعشرين عاماً كانت من أخصب أعوام حياته. خرج من الباب الضيق للحياة ممثلاً في التعليم بمدرسة قرية ابتدائية، ودخلها من أوسع أبوابها قاضياً في النَّبْك (وهي بلدة في جبال لبنان الشرقية، بين دمشق وحمص) ثم في دوما (من قرى دمشق)، ثم انتقل إلى دمشق فصار القاضي الممتاز فيها، وأمضى في هذا المنصب عشر سنوات، من سنة 1943 إلى سنة 1953، حين نُقل مستشاراً لمحكمة النقض، فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام، ثم مستشاراً لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر.

كان قد اقترح -لمّا كان قاضياً في دوما- وضع قانون كامل للأحوال الشخصية، فكُلِّف بذلك عام 1947 وأوفد إلى مصر مع عضو محكمة الاستئناف الأستاذ نهاد القاسم (الذي صار وزيراً للعدل أيام الوحدة) فأمضيا تلك السنة كلها هناك، حيث كُلف هو بدرس مشروعات القوانين الجديدة للمواريث والوصية وسواها كما كُلف زميله بدرس مشروع القانون المدني. وقد أعد هو مشروع قانون الأحوال الشخصية كله وصار هذا المشروع أساساً للقانون الحالي وأُشير إلى ذلك في مذكرته الإيضاحية.

كان القانون يخوّل القاضي الشرعي في دمشق رياسة مجلس الأوقاف وعمدة الثانويات الشرعية، فصار علي الطنطاوي مسؤولاً عن ذلك كله خلال العشر السنين التي أمضاها في قضاء دمشق، فقرّر أنظمة الامتحانات في الثانويات الشرعية، وكانت له يدٌ في تعديل قانون الأوقاف ومنهج الثانويات، ثم كُلف عام 1960 بوضع مناهج الدروس فيها فوضعها وحده -بعدما سافر إلى مصر واجتمع فيها بالقائمين على إدارة التعليم في الأزهر- واعتُمدت كما وضعها.

كما رأينا كان علي الطنطاوي من أقدم معلمي القرن العشرين ومن أقدم صحافييه، وهو أيضاً من أقدم مذيعيه كما سنرى، وقد كانت له -بعد- مشاركة في طائفة من المؤتمرات، منها حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدتها جامعة الدول العربية في دمشق على عهد الشيشيكلي، ومؤتمر الشعوب العربية لنصرة الجزائر، ومؤتمر تأسيس رابطة العالم الإسلامي، واثنين من المؤتمرات السنوية لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا. ولكن أهم مشاركة له كانت في "المؤتمر الإسلامي الشعبي" في القدس عام 1953، والذي تمخضت عنه سفرته الطويلة في سبيل الدعاية لفلسطين، التي جاب فيها باكستان والهند والملايا وأندونيسيا، وقد دَوّن ونشر بعض ذكريات تلك الرحلة في كتاب "في أندونيسيا".

لم تكن تلك أولَ رحلة طويلة يرحلها (وإن تكن الأبعد والأطول)، فقد شارك في عام 1935 في الرحلة الأولى لكشف طريق الحج البري بين دمشق ومكة، وقد حفلت تلك الرحلة بالغرائب وحفّت بها المخاطر، وكثير من تفصيلاتها منشورة في كتابه "من نفحات الحرم".

ترك دمشق قسرياً وهاجر الأديب علي الطنطاوي إلى أرض الحرمين وتحت ترحيب وحماية الملك فيصل بن عبدالعزبز، وظل طوال حياته يحن إلى دمشق ويشده إليها شوق متجدد، والتي أصبح الذهاب إليها حلما صعب المنال. وكتب في ذلك درراً أدبية يقول في إحداها:\*

((وأخيراً أيها المحسن المجهول، الذي رضي أن يزور دمشق عني، حين لم أقدر أن أزورها بنفسي، لم يبق لي عندك إلا حاجة واحدة، فلا تنصرف عني، بل أكمل معروفك، فصلّ الفجر في "جامع التوبة" ثم توجه شمالاً حتى تجد أمام "البحرة الدفاقة" زقاقاً ضيقاً جداً، حارة تسمى "المعمشة" فادخلها فسترى عن يمينك نهراً،أعني جدولاً عميقاً على جانبيه من الورود والزهر وبارع النبات ما تزدان منه حدائق القصور، وعلى كتفه ساقية عالية، اجعلها عن يمينك وامش في مدينة الأموات، وارع حرمة القبور فستدخل أجسادنا مثلها.\*

دع البحرة الواسعة في وسطها وهذه الشجرة الضخمة ممتدة الفروع، سر إلى الأمام حتى يبقى بينك وبين جدار المقبرة الجنوبي نحو خمسين متراً، إنك سترى إلى يسارك قبرين متواضعين من الطين على أحدهما شاهد باسم الشيح أحمد الطنطاوي، هذا قبر جدي، فيه دفن أبي وإلى جنبه قبر أمي فأقرئهما مني السلام، واسأل الله الذي جمعهما في الحياة، وجمعهما في المقبرة، أن يجمعهما في الجنة، {رب اغفر لي ولوالدي} {رب ارحمهما كما ربياني صغيراً} رب ارحم ابنتي واغفر لها، رب وللمسلمين والمسلمات)).

في عام 1963 سافر علي الطنطاوي إلى الرياض مدرّساً في "الكليات والمعاهد" (وكان هذا هو الاسم الذي يُطلَق على كلّيتَي الشريعة واللغة العربية، وقد صارت من بعد جامعة الإمام محمد بن سعود). وفي نهاية السنة عاد إلى دمشق لإجراء عملية جراحية بسبب حصاة في الكلية عازماً على أن لا يعود إلى المملكة في السنة التالية، إلا أن عرضاً بالانتقال إلى مكة للتدريس فيها حمله على التراجع عن ذلك القرار.

وهكذا انتقل علي الطنطاوي إلى مكة ليمضي فيها (وفي جدّة) خمساً وثلاثين سنة، فأقام في أجياد مجاوراً للحرم إحدى وعشرين سنة (من عام 1964 إلى عام 1985)، ثم انتقل إلى العزيزية (في طرف مكة من جهة منى) فسكنها سبع سنوات، ثم إلى جدة فأقام فيها حتى وفاته في عام 1999.

بدأ علي الطنطاوي هذه المرحلة الجديدة من حياته بالتدريس في كلية التربية بمكة، ثم لم يلبث أن كُلف بتنفيذ برنامج للتوعية الإسلامية فترك الكلية وراح يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وتفرَّغَ للفتوى يجيب عن أسئلة وفتاوى الناس في الحرم -في مجلس له هناك- أو في بيته ساعات كل يوم، ثم بدأ برنامجيه: "مسائل ومشكلات" في الإذاعة و"نور وهداية" في الرائي (والرائي هو الاسم الذي اقترحه علي الطنطاوي للتلفزيون) الذين قُدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ إذاعة المملكة ورائيها، بالإضافة إلى برنامجه الأشهر "على مائدة الإفطار".

هذه السنوات الخمس والثلاثون كانت حافلة بالعطاء الفكري للشيخ، ولا سيما في برامجه الإذاعية والتلفازية التي استقطبت -على مرّ السنين- ملايين المستمعين والمشاهدين وتعلّقَ بها الناس على اختلاف ميولهم وأعمارهم وأجناسهم وجنسياتهم. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب؛ فلقد كان علي الطنطاوي من أقدم مذيعي العالم العربي، بل لعله من أقدم مذيعي العالم كله؛ فقد بدأ يذيع من إذاعة الشرق الأدنى من يافا من أوائل الثلاثينيات، وأذاع من إذاعة بغداد سنة 1937، ومن إذاعة دمشق من سنة 1942 لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة ورائيها نحواً من ربع قرن متصل من الزمان.

حمل الطنطاوي على كاهله راية الإصلاح الديني في الميادين كافة: التشريعي والسياسي والاجتماعي، فكان فيما يؤلف ويحاضر الداعية المسلم الذي يهجم على الخرافات والتقاليد البالية والسلوكيات المستوردة، فيصحح عقائد الناس ويقوِّم أخلاقهم، كما كان يتصدى لظلم رجال السلطان وأصحاب الدعوات الهدامة بمنطق الحق القويم وسلاسة الأسلوب وعذوبة العبارة مما قيض له قبولاً عند عامة النّاس، كما نصب له في الوقت نفسه كثيرًا من المعادين.

أدبه

إنّ الحديث عن الشيخ من ناحية الأدب سيطول ويطول... ولن ينتهي! فهو يعتبر بالفعل من مجددي الأدب الإسلامي في هذا القرن، كتب كثيرًا من الكتب في مواضيع شتى، وكان يكتب عن دمشق وعن حنينه إليها باستمرار مع أنّه زار معظم العواصم العربية والإسلامية، وكان مما كتب عنها:

"دمشق! وهل توصف دمشق؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها؟ من يصفها وهي دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود؟ من يكتب عنها ـ وهي من جنات الخلد الباقية ـ بقلم من أقلام الأرض فان؟

دمشق! التي يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق.

دمشق! التي تعانقها الغوطة الأم الرؤوم الساهرة أبدًا، تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة، و قهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى الراكضة دائمًا نحو مطلع الشمس... ".

بجانب ذلك كله ـ والمزيد ـ فإنّ الشيخ رحمه الله تعالى يعد رمزًا من رموز الدعوة الإسلامية، وله سجل مشرف بخدمة الإسلام والمسلمين، وإنّ أسلوبه السهل الجميل المحبب إلى النفوس يوصف بالممتنع لأنّه يصعب تقليده... عبارات جذابة مشرقة، سهلة على العالم الكبير والقارئ البسيط على حدٍ سواء، هو يخلط الحكمة بالوصف بالجمال!

وكانت بداية انطلاقته الأدبية في صحف بلدته بالشام حيث احتل مكانة مرموقة فيها، وفي بعض كتاباته قال يخاطب نفسه الأمارة بالسوء:

"نعم... إنّ المرء لو قطعت يده أو رجله أو ذهب سمعه أو بصره، فلن تنقص نفسه شيئًا بل لقد يكون الأعمى الأصم أكمل نفسًا وأقوى عقلاً وأسمى روحًا من السميع البصير، وإنّك لتعلمين هذا ولكنك نفس سوءٍ تريدين الإستمتاع بشهواتك، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات.

قالت النفس الفاجرة: إذن ولم نحيا أيتها النفس المفكرة؟ قالت: نحيا لكشف خبايا الوجود، لنستطلع طلع الكائنات، لنعرف نواميس الكون وأسرار الطبيعة ... من أجل هذا نحيا".

وإليكم مقنطف من روائع أدبه ما:

{ ((اليتمان)) من روائع الشيخ الطنطاوي-رحمة الله-}

أحس (ماجد) أنه لم يفهم شيئاًمما يقرأ ، وأن عينيه نبصران الحروف وتريان الكلم ولكن علقه لايدرك معناها

، إنه لايفكر في الدرس ، إنه يفكر هذه المجرمة وماجرت عليه من نكد ، وكيف تغصت حياته وحياة أخته المسكينة وجعلتها جحيماً متسعراً ، ونظر في (المفكرة) فإذا بينه وبين الامتحان أسبوع واحد ، ولا بد له من القراءة والاستعداد ، وكيف يقرأ وكيف يستعد؟ وأنى له الهدوء والاستقرار في هذا البيت وهذه

المرأة تطارده وتؤذيه ولاتدعه يتريح لحظة ، وإذا هي كفت عنه انصرفت إلى أخته تصب عليها ويلاتها؟

هل يرضى لنفسه انه يرسب في أول سنة من سني الثاتوية وقد كان (في الابتدائي) المجلي دائماً بين رفاقه

، والأول في صفه؟

وإنه لفي تفكيره ؛ وإذا به يسمع صوت العاصفة.. وإن العاصفة تمر بالحقل مرة في الشهر فتكسر الأغصان ،

وتقصف الفروع ، ثم تجيْ الأمطار فتروي الأرض ثم تطلع الشمس ، فتنمي الغصن الذي انكسر وتنبت

معه غصناً جديدا ، وعاصفة الدار تهب كل ساعة فتكسر قلبه وقلب اخته الطفلة ذات السنوات الست ،

ثم لا تجبر هذا الكسر أبدا فكأن عاصفة الحقل أرحم وأرق قلباً وأكثر (إنسانية) من هذه المرأة التي يرونها

جميلة حلوة تسبي القلوب.. وماهي إلا الحية في لينها ونقشها وفي سمها ومكرهاً.

لقد سمع سبها وشتمها وصوت يدها ، شلت يدها ، وهي تقع على يد الطفلة البريئة ، فلم يستطع القعود

ولم يكن يقدرأن يقوم لحمايتها خوفاً من أبيه ، من هذا الرجل حالف امراته الجديدة وعاونها على حرب

هذه المسكينة وتجريعها غصص الحياة قبل أن تدري مالحياة.. فوقف بنظرمن (الشباك)فرأى اخته مستندة

إلى الجدار تبكي منكسرة حزينة ، وكانت مصفرة الوجه بالية الثوب ،إلى جانبها أختها الصغرى ، طافحة

الوجه صحة ، بارقة العينين ظفراً وتغلباً ، مزهوة بثيابها العالية.. فشعر بقلبه يثب إلى عينيه ويسيل دموعاً

، ماذنب هذه الطفلة حتى تسام هذا العذاب؟ أما كانت فرحة أبيها وزينة حياتة؟ أما كانت أعز إنسان عنده؟

فمالها الآن صارت ذليلة يغيضة ؛ لاتسمع في هذا البيت إلا السب والانتهار ، أما التدليل فلأختها ، التي تصغرها بسنتين ، والطرف لها ، كأنما هي البنت المفردة على حين قد صارت هي خادمة في بيت أبيها ، بل هي شر من خادمة ، فالخادمة قد تلقى أناساً لهم قلوب وفي قلوبهم دين فيعاملونها كأولادهم ، وأبوها هي لم يبق في صدره قلب ليكون في قلبه شرف يدفعه أن يعامل ابنته ، ابنه صلبه ، معاملة الخادم المدللة ، لقد كتب الله على هذه الطفلة أن تكون يتيمة الأبوين ، إذ ماتت أمها فلم يبق لها أم ، ومات ضمير أبيها فلم يبق لها أب!

سومع صوت خالته (امرأة الأب تدعى في الشام خالة) تناديها : (تعالي ولك ياخنزيرة – ولك كلمة شامية محرفة عن كلمة ويللك تردد دائماً).

وكان هذا هو اسمها عندها (الخنزيرة) لم تكن تناديها إلا به فإذا جاء أبوها فهي البنت ، روحي يابنت! أما اختها فهي الحبيبة ، فأين أنت ياحبيبتي؟ تعالي ياعيني وعاد صوت يزمجر في الدار ؛ ألا تسمعين أختك تبكي؟ انظريي الذي تريده فهاتيه لها ألا تجتوبين؟ هل أنت خرساه؟ قولي : ماذا تريد؟

فأجابت المسكينة بصوت خائف ؛ إنها تريد الشكولاتة . ولماذا بقيت واقفة مثل الدبة! اذهبي فأعطيها ماتريد!

فوقفت المسكينة . ولم تدر كيف تبين لها أن القطعة الباقية لها ، لقد اشترى أبوها البارحة كفاً من الشكولاته ، أعطاه لابنته الصغيرة فأكلته وأختها تنظر إليها ، فتضايقت من نظراتها فرمت إليها بقطعة منه ، كما يرمي الإنسان بالقمة للهرة التي تحدق فيه وهو يأكل ، وأخذت المسكينة القطعة فرحة ، ولم تجرؤ أن تأكلها على اشتهائها إاهاه ، فخبأتها وجعلت تذهب إليها كل ساعة فتراها وتطمئن عليها ، وغلبتها شهوتها مرة فقضمت منها قضمة بطرف أسنانها ، فرأتها أختها المدللة فبكت طالبة الشكولاتة.

ويلك ياملعونة فأين الشكولاتة؟

فسكتت.. ولكن الصغرى قالت : هناك يامام عندها ، أخذتها الملعونة مني! واستاقت المرأة ابنتها وابنة زوجها ، كما يساق المتهم إلى التحقيق فلما ضبطت (متلبسة بالجرم المشهود)ورأت خالتها الشكولاتة معها حل البلاء الأعظم !

ياسارقة ياملعونة ، هكذا علمتك أمك.. بسرقين ما ليس لك؟

وكان ماجد يتحمل كل شيْ إلا الإساءة إلى ذكرى أمه ، فلما سمعها تذكرها لم يمتلك نفسه أن صاح بها :

أنا لا أسمح لك أن تتكلمي عن أمي.

فتشمرت له واستعدت وكانها تتعمد إذلاله وإيذاءه دائماً فكان يحتمل صامتاً لايبدو عليه أنه يحفل بها أو

يأبه لها ، فكان ذلك يغيظها منه، وتتمنى أن تجد سبيلاً إلى شفاء غيظها منه وها هي ذي قد وجدتها.

لاتسمح لي؟ أرجوك ياسعادة البك أسمح لي أنا في عرضك..آه ! ألا يكفي أني أتعب وأنصب لأقدم لك

طعامك وأقوم على خدمتك ، وأنت لاتنفع لشيْ إلا الكتابة في هذا الدفتر الأسود ، لقد ضاع تعبي معك أيها

اللئيم ،ولكن ليس بعجيب أنك ابن أمك.قلت لك كفي عن ذكر أمي وإلا أسكتك.

واقترب منها ، فصرخت الخبيئة وولولت وأسمعت الجيران.تريد أن تضربني؟ آه يا خاين ، يامنكر الجميل ، ويلي.. يا ناس يا عالم ، الحقوني يااخواتي.

وجمعت الجيران ، وتسلل ماجد إلى غرفته أي إلى الزاوية التي سموها غرفة ، وخصوه بها لتتخلص سيدة الدار من رؤيته دائماً في وجهها!

ودخل الأب المساء وكان عابساً على عادته باسراً لا يبتسم في وجود أولاده ، لئلا يجرئوا عليه فتسوء تربيتهم وتفسد أخلاقهم ولم يكن كذلك قبل ولكنه استن لنفسه هذه السنة من يوم حضرت إلى الدار هذه الأفعى وصبت سمها في جسمه ، ووضعت في ذهنه أن ماجداً وأخته ولدان مدللان فاسدان لا يصلحهما إلا الشدة والقسوة وكانت خبيثة إذا دنا موعد رواحه إلى الدار ، تخلع ثيابها وتلبس ثياباً جديدة ، كما تخلع عنها ذلك الوجه الشيطاني وتلبس وجها فيه سمات الطهر والطفولة ، صنعه لها مكرها وخبثها

، ولا تنسى ان تنظف البنتين وتلبسهما ثياباً متشابهة كيلا يحس الأب بأنها تفضل ابنتها على ابنته. دخل فاستقبلته استقبال المحبة الجميلة ، والمشوقة المخلصة ، ولكنها وضعت في وجهها لونا من الألم

البرئ تبدو كأنها المظلومة المسكينة ، ولحقته إلى المخدع تساعده على إبداع حلته هناك روت له قصة مكذوبة مشوهة فملأت صدره عضبا وحنقا على أولاده ، فخرج وهو لايبصر ما أمامه ، ودعا بالبنت فجاءت خائفة تمشي مشية المسوق إلى الموت ، وقفت امامه كأنها الحمل المهزول بين يدي النمر ، فقعد على كرسي عال ، كأنه قوس المحكمة وأوقفها امامه ، كالمتهم الذي قامت الأدله على إجرامه ، وأفهمها

قبح السرقة ، وعَّنها وزجرها.. وهوينظر إلى ولده ماجد شزراً وكانت نظراته متوعدة منذرة بالشر ولم يقبل ماجد السكوت وهو يسمع اتهام أخته بالسرقة وهي بريئة منها ، فأقبل على أبيه يريد يشرح له الأمر ، فتعجل بذلك الشر على نفسه. انفجر البركان وزلزلت الدار زلزالها ، وأرعد فيها صوت الأب المغضب المهتاج :

تريد أن تضرب خالتك ياقليل الحياء ، يامعدوم التربية يا ملعون؟ حسبت أنك إذا بلغت الرابعة عشرة قد أصبحت رجلاً وهل يضرب الرجل خالته؟ إنني أكسر يدك ياشقي!

والله يا أبي غير صحيح. ووقاحة أيضاً؟ أما بقي عندك أدب أبداً؟ أتكذب حالتك؟ أنا لا أكذبها ، ولكنها تقول أشياء غير صحيحة. عند ذلك وثب الأب وانحط بقوته وغلظته وما أترعت زوجته نفسه به مكرها ، انحط على الغلام وأقبل يضربه ضرب مجنون ذاهب الرشد ، ولم يشف غيظ نفسه ضربه فأخذ الدفتر الأسود الذي أودعه دروسه كلها ، فمزقة تمزيقاً.. ثم تركه هو وأخته بلا عشاء عقوبة لهما وزجراً. تعشى الزوجان وابنتهما وأويا إلى مخدعهما والغلام جاثم مكانه ينظر إلى قطع الدفتر الذي أفنى فيه

لياليه وعاف لأجله طعامه ومنامه ، والذي وضع فيه نور عينيه ، وربيع عمره ، وبنى عليه أمله ومستقبله.. ثم قام يجمع قطعة كما تجمع الأم أشلاء ولدها ، ولا تعود دفتراً يقرأفيه إلا إذا عادت هذه الأشلاء بشرا سويا يتكلم ويمشي.. فأيقن أنه قد رسب في الامتحان وقد أضاع سنته ، وكبر عليه الأمر ، ولم تعد أعصابه تحتمل هذا الظلم ، وأحس كأن الدنيا تدور به وزاغ بصره وجعلت أيامه تكر راجعة أمام عينيه كما يكر فلم السينما. رأى ذلك الوجه الحبيب ، وجه أمه ، وابتسامتها التي كانت تنسيه آلام الدنيا ، وصدرها الذي كان يفزع إليه من خطوب الدهر ، رآها في حتها وشبابها ، ورأى البيت ومافيه إلا السلم والهدوؤ والحب ، ورأى أباه حقيقياً تفيض به روح الأبوة من عينيه الحانيتين ، ويديه الممتلئتين أبداً بالطرف واللطف ، ولسانه الرطب بكل جميل من القول محبب من الكلام. ويكر الفلم ويرى أمه مريضة فلا يهتم بمرضها ، ويحسبه مرضا عارضاً.. ثم يرى الدار والاظطراب

ظاهر فيها ، والحزن باد على وجوه أهلها ، ويسمع البكاء والنحيب ، ويجدهم يبتعدون به ، ويخفون عنه النبأ عنه ، ولكنه يفهم أن أمه قد ماتت.ماتت؟ إنها كلمة تمر عليه أمراً هنياً فلا يأبه به ، وكان قد سمع بالموت ، وقرأ عنه في الكتب ، ولكنه لم يره من قريب ولم يدخل داره ، ولم يذقه في حبيب ولا نسيب ، غير أن الأيام سرعان ما علمته ماهو الموت حين صحا صبيحه الغد على بكاء أخته الحلوة المحببة إلى امها ، والتي كانت محببة تلك الأيام إلى أبيها ، ففتح عينيه فلم يجد امه إلى جانبها اترضعها وتضمها إلى صدرها ، وأشتد بكاء البنت ، وطفق الولد ينادي : أمي.. ثم جفا فراشه وقام يبحث عنها فوجد أباه وجمعا من قريباته ، يبكون هم.. أيضاً.. فسألهم : أين أمه؟ فلم يجيبوه.. وحين أراد الغدو على المدرسة.ناداها فم تأت لتعد له حقيبته وتلبسه ثيابه ولم تقف لوداعه وراء البابتقبله وتوصيه ألا يخاصم أحداً وألا يلعب في الأزقة ، ثم إذا ابتعد عادت تناديه لتكرر تقبيله وتوصيه ، وحين عاد من المدرسة وجد امرأة غريبة ترضع أخته.. لماذا ترضعها امرأة غريبة؟ وأين أمي؟! ويكر الفلم ، ويرى أباه رفيقاً به حانياً عليه يحاول ان يكون اه ولأخته أماً وأباً ، ولكن هذا الأب تبدل منذ ذلك اليوم المشؤوم ، ورأى ذلك اليوم المشؤوم يوم قال له أبوه : ستأتيك ياماجد أم جديدة ، أم جديدة؟ هذا لشيْ لم يسمع به إنه يعرف كيف تجيْ أخت جديدة ، إن أمه تلدها من بطنها ، أما هذه الأم فمن أين

تولد؟ وانتظر وجاءت الأم الجديدة وكانت حلوة ، ثيابها جميلة ، وخدودها بلون الشفق ، وشفاهها حمر ليست كشفاه الناس ، وعجب من لون شفافها ، ولكنه لم يحببها ولم يمل إليها ، وكانت أيامها الأولي رقيقة لطيفة ، كالغرسة الصغيرة فلما مرت الأيام واستقرت في الأرض ومدت فيها جذورها ، صارت يابسة كجذع الدوحة ، وإن كانت تخدع الرائين بروقها الطري وزهرها الجميل ولما ولدت هذه البنت انقلبت شيطانة على صورة أفعى مختبئة في جلد امرأة جميلة ، والعياذ بالله من المرأة الجميلة إذا كانت في حقيقتها شيطانه على صورة أفعى ! وانطمست صور الماضي الحبيب ، واضمحل القلم ، ولم يبق منه إلا هذه الصورة البشعة المقيتة ، ورآها تكبر وتعظم حتى أحاطت به وملأت حياته ، وحجبت عنه ضياء الذكرى ونور الأمل.. وسمع قهقة فانتفض وأحس كأن رنينها طلقلت (رشاش) قد سقط رصاصه في فؤاده ، وكانت قهقهة هذه المرأة

التي نسيها ،وذكره جوعه بأن المسكينة قد باتت بلا عشاء ، ولعلها قد بقيت بلا غداء أيضاً ، فإن هذه المجرمة تشغلها النهار كله بخدمتها وخدمة ابنتها ، وتقفل دونها غرفة الطعام فلا تعطيها إلا كسرة من الخبز ، وتذهب فتطعمه ابنتها خفية ، فإذا جاء الأب العشية ولبست أمامه وجهها البرئ شكت إليه مرض البنت وضعفها : مسكينة هذه البنت إنها لاتتغذى.. اظر إلى جسمها ، ألا تريها لطبيب؟ ولكن ماذا يصنع لها الطبيب ، إنها عنيدة فيناديها أبوها وبقول لها؟ ولك يابنت ماهذا العناد؟ كلي وإلا كسرت رأسك! فتتقدم لتأكل فترى اللمرأة تنظر إليها من وراء أبيها نظرة الوعيد ، وترى وجهها قد انقلب حتى صار كوجه الضبع فتخاف وترتد. فتقول المرأة لزوجها ، ألم أقل لك ، إنها عنيدة تحتاج إلى تربية؟ فيهز رأسه ، ويكتفي من تربيتها بضربها على وجهها ، وشد أذنها ، وطردها من الغرفة ، ويكون ذلك عشاها كل عشية ! تذكر ماجد أخته فقام إليها فرفعها وضمها إلى صدره. مالك؟ لماذ اتبكين؟ أسكتي ياحبيبتي؟ جوعانة! جوعانة؟ من أين يأتيها بالطعام؟ وقام يفتش.. فأسعده الحظ فوجد باب غرفة الطعام مفتوحاً

وعهده به يقفل دائماً ووجد على المائدة بقايا العشاء ، فحملها إليها فأكلتها فرحة بها مقبلة عليها ، كأنها لم تكن من قبل الابنه المدللة المحبوبة ، التي لا يرد لها طلب لو طلبت طلباً ، ولا يخيب لها رجاء ، آلمه أن يراها تفرح إذا أكلت بقابا أختها وأبيها يسرقها لها سرقة من غرفة الطعام ، وعادت صور الماضي فتدفقت على نفسه وطغت عليها ورجعت صورة أمه فتمثلت له ، وسمعها تناديه.. لقد تجسم هذا الخيال الذي

كان يراه دائماً ماثلاً في نفسه ، حتى ردهإلى الماضي أنساه الحاضر.. ولم يعد يرى أخته البنت اليتيمة المظلومة ، وإنما يراها الطفلة المحبوبة التي تجد أماً تعطف عليها وتحبها. ونسي دفتره الممزق ، ومستقبله الضائع ، وحيانه المرة ، وطفق يصغي إلى نداء الماضي في أذنيه.. إلى صوت أمه. قومي ياحبيبتي ألا تسمعين صوت أمك تعالي نذهب إلى أمنا ! فأجفلت البنت وارتاعت ، لأنها لم تكن ترعف لها أما إلا هذه المرأة المجرمة.. وخافت منها وأبت أن تذهب إليها. لقد كان من جناية هذه المرأة أنها شوهت في نفس الطفلة أجمل صورة عرفها الإنسان

صورة الأم !

تعالي نذهب إلى أمنا الحلوة : أمك.. إنها هناك في محل جميل : في الجنة.. ألا تسمعين صوتها؟ وحملها بين يديه ، وفتح الباب ، ومضى بها.. يحدوه هذا الصوت الذي يرن في أذنيه حلوا عذيا إلى المكان الذي فيه أمه.

وقرأ النعي في الجرائد ضحى الغد أن العسس وجدوا في المقبرة طفلة هزيلة في السادسة من عمرها ، ولدا في الرابعة عشرة قد حملا إلى المستشفى ، لأن البنت مشرفة على الموت ، قد نال منها الجوع والبرد والفزع ، ولا يمكن اتنجوو إلا بأعجوبة من أعاجيب القدر ، أما الغلام فهو يهذي في حماه ، يذكر الامتحان ، والدفتر الأسود ، وأمه ، تناديه ، والكرة التي تشبه الأفعى !

رجال من التاريخ

يتحدث الشيخ عن رجال من التاريخ فيقول : "كل ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لي في دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة.استمرت اذاعتها أعواما تعبت في إعدادها كثيرا ، واستمتع بها واستفاد منها من السامعين كثيرا ، بلغت الثلاثمئة أو تزيد ضاعت فيما ضاع مما كتبت وأرجو ألا يضيع عند الله ثوابها.

كنت إذا اردت الحديث عن رجل ،قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه وقيدت في ورقة ما أختار من أخباره وبرما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات الصفحات ، ثم أعمد إلى خبر منها أجعله مدخلا غليها واحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوبا ينأى عن جفاف السرد التاريخي ويخلص من تخيل الكاتب في القصة التاريخية،لعلي أصل على الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب فأوفق حينا ويجانبني التوفيق حينا.

وكنت كلما أعددت حديثا عن رجل من الرجال ، فتح لي الباب عن الحديث على أقرانه وأمثاله، فحديث صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك ، ولو أني اسمررت أتحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة، في كل أسبوع حديثا وجاء مئة غيري يصنعون مثل صنعي لما نفدت احاديث هؤلاء العظماء .

إن في كتب التاريخ والأدب والرحلات والمحاضرات آلافا من سير العظماء ليست في كتب التراجم على كثرتها.

من ذلك أني كنت أتسلى بالنظر في رحلة ابن بطوطة فاستخلصت منها تراجم كثيرين منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حفدة جنكيز خان المسلمين ، وكان يحكم مملكة واسعة المدى مترامية الأطراف كثيرة الجيوش واسعة الخيرات فهل سمعتم باسم طرمشيرين ،وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين ، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر عاشت حينا من الدهر كانت تسمى دولة البلغار وكانت عاصمتها بقرب ستالينجراد.....

ولما كتب لي أن أزور الهند وأندونيسا رأيت للمسلمين فيها تاريخا ما كنت أعرفه ،ولا كان مما يدرس في المدارس ولا يوجد في الكتب التي اطلعنا عليها ، تاريخا ينتظر الباحث المخلص الذي يحيط به ، والقلم البليغ الذي يكتبه وفي هذا الكتاب مثال صغير عليه في سيرة أورنك زيب والملك الصالح وسلطانة الهند ومن نظر في كتابي عن أندونيبسيا وقرأ قصة دخول الاسلام اليها الرأى فيها شاهد آخر على ما أقول . ولعل من ابرز الشخصيات التي وردت هي:

سيد رجال التاريخ - معلمة الرجال \_السيدة عائشة - سيدة جليلة من سيدات المجتمع المسلم \_أسماء بنت أبي بكر- أعظم قواد التاريخ \_خالد بن الوليد - قاهر كسرى \_سعد بن أبي وقاص - مأساة عالم \_عروة بن الزبير العالم العامل-الحسن البصري

الخليفة الكامل –عمر بن عبد العزيز - فاتح المشرق-قتيبة بن مسلم الباهلي

من ورثة الأنبياء –سعيد بن السيب - الامام الأعظم- ابو حنيفة - أكبر ملوك الارض –هارون الرشيد - فاتح القدس –صلاح الدين - الملك الصالح-مظفر بن محمود من ملوك أحمد آباد - سلطانة الهند - باني مراكش –يوسف بن تاشفين - موسى بن نصير.

وسنعرض في عجالة لبعض منهم في السطور التالية :

الملك الصالح

وهذه سيرة عظيم آخر لا تعرفونه ، وما أكثر من لا تعرفون من عظماء الإسلام ، ملك آخر كان في سيرته وأعماله مثلا مضروبا لما ينبغي أن يكون عليه الملك المسلم ، حلقة من هذه السلسلة الذهبية التي ضمت حلقاتها سير أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصاح الدين وأورنك زيب .....هو الملك الحليم مظفر بن محمود من ملوك أحمد آباد في الهند.

وكانت أحمد آباد حاضرة الهند ومدينة المدائن فاقت البلدان ببساتينها وحدائقها وحسن نظامها وعظيم عمرانها وفاقتها بأمنها وسلامها وإقامة العدل فيها وفاقتها بكثرة علمائها ومحدثيها والصالحين من أهلها .

ولد يوم الخميس 20شوال سنة 785 هـ في الكجرات ونشأ نشأة عالم عابد في أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبدون وقرأ ما كان معروفا من كتب العلم وبرع في الحديث وكان قد تلقاه عن جمال الدين المبارك الحميري الحضرمي ومجد الدين الإيجي وشارك في العلوم والفنون كلها حتى الموسيقى وكان خطاطا جيد الخط ، يتقن النسخ والثلث والرقعة وكان يمتب المصحب بيده ويبعث به إلى الحرمين ..وحفظ القرآن في شبابه ..

ومارس السيف والرمح والرمي والفروسية والمصارعة وأتقن الفنون الحربية وكانت صورة نشأته صورة عن نشاة أورنك زيب ....أو على الأصح تلك نسخة عن هذي لأن أورنك زيب أتى بعده بقرن ونصف ...

وكذلك ترون أن في الهند المسلمة التي تجهلون تاريخها \_كما كنت أجهله قبل أن ارحل إليها \_ملوكا في ثياب فقهاء وعلماء ومحدثين ، رجالا جمعوا الدنيا والدين والعلم والعمل ......

وكان أسلافه كلهم على هذا الطريق لكنه فاق أسلافه

ولي الملك 3 رمضان 917 هـ وهو في الثانية والأربعين وحكم إلى أن توفي في 2 جمادى الأولى 932 ....فكانت مدة سلطانه خمس عشرة سنة مرت على الناس مما رأو فيها من عدله وسخائه وحزمه وتقواه كأنها خمسة عشة يوما ....

وكان يتبع السنة ويعمل بما يحفظ من الأحاديث الصحيحة في كل صغيرة وكبيرة من أمور نفسه وأهله والرعية ...ويدني العلماء ويصحبهم ويكرمهم ويرجه إليهم ...

وكان في الحرب قائدا عبقريا وإن لم يكن يميل إلى خوض الحروب ، ولما استنجد به السلطان محمود الخلجي وجاءه مستجيرا به وقد غلبه المجوس على دياره واحتلوا عاصمته وفيها أهله وماله ، وخرج ينجده بجيش ضخم فخدعه العدو وعرض عليه تسليم القلعة وماطله حتى جاءه القائد الهندي الأشهر (رانكا سانكا) ع بين حجري الرحا ويحيط به العدو من الجانبين فإذا هو بحيلة بارعة وشجاعة نادرة يفتح القلعة ويحر الجيشين المعاديين ويكون له النصر الأبلج ....

ولما وصل إلى بابها ، لم يدخلها بل التفت إلى السلطان الخلجي وهنأه بالفتح وقال باسم الله ...ادخلوها بسلام آمنين وعطف عنان فرسه راجعا ولكن الخلجي لم يدعه حتى أدخله قبله وقدم إليه أولاده الذين استنقذوا من الأسر وأراه آثار آبائه ومعالم بلاده ثم دعا وجوه مملكته وقواد جيشه وقال للسلطان المظفر على ملأ منهم جميعا : الحمد لله الذي أراني بهمتك ما كنت أتمناه ، ولم يكن لي الىن أرب بالملك وانت أحق بالملك مني ...

قال المظفر : إن أول خطوة خطوتها إلى هذه الجهة كانت لله ولم تكن للملك والله يبارك لك في ملكك على أن تقيم شرع الله وحكمه وأن نكون يدا واحدة في كل أمر ... قال الخلجي : لقد خلا ملكي من الرجال وليس لدي جيش يحميه ولا آمن عودة العدو . . . قال المظفر : ام هذا فنعم وترك معه قائده آصف خان باثني عشر ألفا ... وقال لهم إن جرايتكم على حالها . . . ورواتبكم ونفقاتكم كلها علي كما كانت وما أعطاكم الخلجي من شيء فهو توسة لكم . . . وأمر للخلجي بخزانة مال .

ولما هم بالرحيل سأله أركان دولته أن يستأثر بالقلعة . . ويضمها إلى ملكه فالتفت إلى الخلجي وقال له : احفظ باب القلعة برجالك ولا تدع أحدا يدخلها بعد نزولي ولو كان من أصحابي وأولادي .

وأخذه الخلجي قبل الوداع إلى دار مغلقة ففتحها فرز له منها نساء ما رأت العين مثلهن فنثرن الزهر والجوهر على قدميه . . . فغض بصره وأشار إليهن أن يحتجبن لأن النظر إلى الأجنبية حرام . . .قال الخلجي : كلهن ملكي . وأنا مالُك والعبد وما ملك لسيده . . .فدعا له وخرج ولم ينظر إلى واحدة منهن .

والعجيب حقا في القصة المملوءة بالعجائب أن الخلجي هذا وآباؤه كانوا أعداء دولة الكجرات وألد خصومها وأعجب منه أن والد الخلجي هذا ، المسمى غياث الدين الخلجي كان قد خرج إلى الكجرات لنصرة كفار الهند على ملوكها المسلمين .

وكان من دأب الملوك المسلمين يا سادة إذا عنوا ببلادهم وأصلحوا أمرها أن يعنوا بالبلد الذي هو بلد كل مسلم ، بالحرمين ..فيقفوا عليهما الأوقاف ويرسلوا إليهما المدد وكانت إمدادات المظفر لأهل الحرمين متصلة وقد صنع مركبا شحنه بأثمن القماش وأرسله هدية هو وما فيه إلى جدة وبنى بمكة رباطا فيه مدرسة وسبيل ومساكن ووقف عله وقفا كبيرا وكانت له في كل موسم صلات ضخمة يبعث بها إليهم .

وكان خبر موته خبرا عجيبا يدل على حسن الخاتمة ...وعلى أنه إن شاء الله من أهل الحنة . وأنا أروي الخبر كما جاء في كتاب نزهة الخواطر للعلامة الطبيب الحاذق مؤرخ الهند المسلة عبد الحي الحسني والد الصديق الجليل أبو الحسن الندوي نقلا عن الآصفي قال :

وفي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء وتصدق وتفقد ذوي الحاجة على طبقاتهم وسأله الدعاء ...ثم تقدم للصلاة وكان آخر ما دعا به :

اللهم إن يعبدك ولا أملك لنفسي شيئا فإن تك ذنوبي حبست القطر فها ناصيتي بيدك فأغثنا يا أرحم الراحمين قال هذا ووضع جبهته على الأرض يكرر يا ارحم الراحمين فما رفع رأسه إلا وقد هاجت الريح ونشأت سحابة ببرق ورعد ومطر .... ثم سجد لله شكرا . وعاد بدعاء الناس له وهو يتصدق وينفح بيده المال يمينا وشمالا.

وبعد الاستسقاء بقليل اعتراه كسل . . .ثم ضعف في المعدة . . وفي خلال ذلك عقد مجلسا حافلا بسادة الأمة ومشايخ الدين وتذاكروا فيما يصلح للآخرة .............

قال ..................وفي أواخر أيامه وكان يوم الجمعة قام إلى القصر واضطجع إلى أن زالت الشمس فاستدعى بالماء وتوضأ وصلى ركعتي الوضوء .........ثم خرج وجلس ساعة واستدنى منه راجه محمد حسين المخاطب (أي المدعو) بأشجع الملك .. وقال له أريدك أن تحضر وفات وتغسلني بيديك وتقرأ علي سورة ياسين .....وسمع أذانا فقال أهو في الوقت ....قالوا هو أذان الاستدعاء للجمعة (الأذان الأول يكون قبل الوقت بقليل ) قال أما الظهر فأصليه معكم ...وأما العصر فعند ربي في الجنة إن شاء الله ....ثم أذن للحاضرين في صلاة الجمعة وطلب مصلاه وصلى ودعا الله سبحانه بوجه مقبل وقلب منيب .............وكان آخر دعائه ...رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ........وقام من مصلاه وهو يقول استودعكم الله ...واضطجع على سريره ووجه للقبلة وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ....وفاضت روحه إلى بارئها .......والخطيب على المنبر يدعو ...حنأ؛

موسى بن نصير

هذه صفحة من تاريخ الفتح الذي كان أعجوبة التاريخ في سرعته ومضائه ، كما كان أعجوبة التاريخ في استمراره وبقائه ، وفي طهر أسلوبه ونقائه ، وفي سمو مقصده وعلائه ، رأى التاريخ فتوحا لا تعد من كثرتها ولا تحصى ، فما رأى فتحا أسرع منه ولا انفع ، لم يكن فيه شعب غالب وآخر مغلوب ، بل كان فيه أتقياء بررة وفساق فجرة وملحدون كفرة فكان أكرم الناس أتقاهم سواء فيه أكان في الأصل من الغالبين أو المغلوبين ، لأن الإسلام لا ينظر إلى الأنساب بل إلى الأعمال ولا يميز الناس بآبائهم بل بأنفسهم وليست العظمة فيه بعلو الجاه وكثرة المال بل بصدق الإيمان وحسن الفعال . . ولئن هدى الله مصر بعمر ، فكان إسلامها حسنة من حسناته فالمغرب حسنة من حسنات عقبة بن نافع أولا ، وحسان بن النعمان ثانيا وموسى بن نصير أخيرا ، ولولا موسى ما استقر فيها الفتح ولا خلصت للإسلام ، ولولا موسى لما كان لنا في الأندلس هذا الفردوس المفقود .

وموسى بطل مظلوم ، ظلم في حياته فكانت مكافأته شر مكافأة على أحسن عمل ، حمل وزرها سليمان بن عبد الملك إذ أساء لكل من أدركه من الفاتحين الذين أحسنوا للعروبة والإسلام ولم يكن له من أعمال الخير إلا أنه سمع رأي روح بن زنباع فجعل ولي عهده الخليفة الصالح المصلح عمر بن عبد العزيز ،

وظلم بعد موته فخلد اسم طارق هذا الجبل ، والجبل الآخر الذي أقامه في التاريخ من المكرمات ، وكاد ينسى اسم (جبل موسى )وهو الذي بعث طارقا وهو الذي مكن له وهو الذي أرسى أساس ذلك الصرح الذي شاد طارق شرفة من عالي شرفاته . . . على أني لا أظلم طارقا ، وسيأتي عنه من الحديث ما فيه النصفة والحق إن شاء الله .

هذه قصة موسى بن نصير أعرضها عرضا مسلسلا لا أقف لأعلق وأعلل وأدلل بل أترك فصولها وحوادثها تنطق بلسان حالها

لم يكن موسى قائدا عسكريا فقط بل كان حاكما إداريا وكان خطيبا بليغا وكان دينا مراقبا ربه عاملا لآخرته وكان نموذجا كاملا لطلبة الدورة الثانية في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم وهم التابعون ...

وكان أبوه نصير مولى عبد العزيز بن مروان من حرس معاوية فلما أعلن معاوية ثورته على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقام بهذا الإنقلاب العسكري قعد نصير هذا عن نصرته ، ولما سأله معاوية : ما منعك من الخروج معي ولي عنك يد لم تكافئني عليها ؟

قال : لم أستطع أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري فقال معاوية : من ويحك ؟ قال : الله ...فاطرق معاوية مليا وقال : لقد قلت حقا وأستغفر الله . ولو كان معاوية ملكا كما يعرف التاريخ من الملوك لغضب عليه ، ولكنه كان من صحابة رسول الله ومن كتبة الوحي فلما رأى الحق رجع له .

ولزم موسى عبد العزيز بن مروان وكان أمير مصر وكان خير بني مروان ، لا يفضله فيهم إلا ابنه العظيم ، فكان موسى مع المجاهدين لنشر الإسلام في أفريقية ، سلك معهم الصحراء وركب معهم البحر وقاد حملات وسفن إلى أن ولي الخلافة عبد الملك ، فأراد أن يشرف أخاه الأصغر بشر بولاية العراق ولكنه كان يعلم ضعفه عنها وكان يعلم أن من ولّى رجلا ولاية وفي المسلمين من هو أقدر عليها منه فقد خان الله ورسوله والمسلمين . فكتب إلى أخيه عبد العزيز ان أرسل غلي بشرا وأرسل معه موسى وأخبره أنه الأمير الحقيقي وليس لذاك إلا الاسم وأنه المسؤول عن أي خلل أو تقصير ، فاستلم بش الإمارة ظاهرا وكان موسى الأمير حقيقة فأدار الأمور خير إدارة وساس الناس أعدل سياسة وبقي على ذلك حتى مات بشر وولي الرجل الحازم الصارم الظالم الحجاج ، وكان يكرهه ويتهمه بما ليس فيه فستأذن عبد الملك في عقابه ، وكان في دمشق صديق لموسى هو خالد بن أبان فكتب إله : ((إنك معزول وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف وقد امر فيك بأغلظ أمر ، فالنجاة النجاة ، فإما أن تلحق بالفرس فتأمن أو تلحق بعبد العزيز مستجيرا به , ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك ))

فلما أتاه الكتاب ركب ولحق بعبد العزيز وكان في الشام قد وفد يحمل أموال مصر إلى أمير المؤمنين ..

وغضب الحجاج لما رآه أفلت منه وكتب إلى عبد الملك ((إن موسى بن نصير قد اقتطع من أموال العراق ما لا يقدر وفر فابعث به إلي ))

ولكن عبد العزيز أدخله على أخيه وعمل حتى رضاه عنه وسيره معه إلى مصر حتى خلا مكان القائد العام لجيوش العرب بموت حسان فولي موسى القيادة العامة . وكانت راية الإسلام قد رفرفت من قبل على أفريقية كلها على يد عقبة بن نافع الذي اخترق بجيشه الشمال الأفريقي كله ماضيا وسط القبائل البربرية كالسهم ، لكنها كانت حركة لم تطهر البلاد من قوى الأعداء .

فلما تسلم موسى ، رأى الجيوش الإسلامية التي قد بلغت البحر قد عادت إلى القيروان التي بناها عقبة بناء مؤقتا لتكون مركزا ثابتا للقيادة ، قد أصابها الجزر بعد ذلك المد فاضطرت إلى الإنسحاب والتوقف بعد ذلك الهجوم .

والقيروان نفسها لم تكن إلا مجموعة من الأكواخ والخصاص ، حتى أن المسجد لم يكن أكثر من جدران من الطين قد سقفت ببعض الخشب وكانت الجبال المحيطة بها كلها بيد البربر وكانوا يهددون المدينة دائما فكان أهلها يصبحون على ترقب ويمسون على حذر

ولم يجد الفاتحون المسلمون في كل من قابلوا من الأمم من هو أقوى ساعدا وأجرأ قلبا وأكثر بالحرب تمرسا من الترك في الشرق ، والبربر في الغرب ، فرمى الله أولئك بقتيبة وهولاء بعقبة ثم بموسى .

ولما وصل موسى إلى مقر القيادة في ذات الجماجم ، جمع القواد والضباط ، وخطبهم خطبة عرفهم فيها بنفسه وبخطته ، وأعلن فيهم اسلوبه في الحكم ، فكان الأسلوب العمري : شدة في غير عنف ، ولينا في غير ضعف وتواضعا في غير مذلة ، لا استئثار فيه ولا استبداد ، وليس فيه حمل على باطل ، وكان مما قال :

((وإنما أنا رجل كاحدكم ، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها ومن رأى مني سيئة فلينكرها فإني أخطأ كما تخطئون ، واصيب كما تصيبون ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ))

ثم نقل القيادة إلى المركز الأمامي ، إلى القيروان وهناك خطب خطبة ثانية أعلن فيها عن طريقته العسكرية كما بين في الأولى طريقته المدنية ، فقال : ((ليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم من غير أن يكلم أو يكلم متوكلا في حزمه ، جازما في عزمه ، مستزيدا في علمه ، مستشيرا لأهل الرأي في غحكام رأيه ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذرا ، وغن نكب أظهر جلادة وصبرا ، راجيا من الله حسن العاقبة ، وغن من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى وويترك العدو الأدنى ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة ويكون عونا عليه عند النكبة ، وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله فيها وهو خير الحاكمين .))وفي هذه الخطبة الموجزة المعجزة أصدق صورة للقائد الكامل ولقد أمضى كل ما قاله فيها فجرد حملة من خمسمئة فارس وصلت إلى زعوان وعادت بشيء من الأسرى والغنائم .

ووجه حملة أخرى بقيادة ابنه عبد الرحمن ، وثالثة بقيادة ابنه مروان فطهر بذلك منطقة القيروان كلها من الأعداء وأمن على مركز القيادة ، وأحصيت الغنائم فبلغ الخمس ستين الفا ، أعده ليبعث به إلى عبد العزيز فأخطأ الكاتب وكتبه ثلاثين ألفا ، فلما وصل الكتاب إلى عبد العزيز أكبر الرقم وكتب إليه يسأله هل هذا الرقم صحيح ، فأجابه بل خطأ ، لكنه خطأ نقص لا خطأ زيادة وأن الصحيح ستين الفا .

ووجه همته على الفتح . وكان ادنى القبائل غليه هواره وزناته وكتامة ، تسرح في موضع حكومة الجزائر اليوم ، وهي قبائل بربرية مقاتلة لا تحصى كثرة وعددا ، وكان في المغرب الأقصى قبائل صنهاجة القوية الشديدة ، وكانوا جميعا محاربين صحراويين ، ولكن العرب كانوا صحراويين محاربين ، وكانوا مسلحين بالإيمان الذي يجعلهم يطلبون الموت في سبيل الله كما يطلب غيرهم الحياة .

وجرد الحملات اولا على القبائل القريبة منه وكانت قد جربت قتال العرب والمسلمين وعرفت ماهم في الحروب ، فدافعت دفاعا قويا ثم استسلمت ...فصالحهم موسى وأخذ منهم رهائن لئلا يغدروا على عادة تلك القبائل ...\*

وتوجه بعد ذلك إلى صنهاجة ، بقوى ضخمة من أهل الديوان (أي الجند النظامي ) والمتطوعة من العرب وممن أسلم من البربر فوجد النهر في طريقه في فيضانه وزيادته فأحدث فيه مخاضة غير التي أحدثها عقبة ومضى قدما فوجدهم مستعدين للحرب وكانت المعركة في دارة واسعة بين جبال منيعة اختاروها لا يوصل غليها إلا من مضايق قليلة بين الصخور ودارت المعركة يوم الخميس والجمعة والسبت إلى العصر وكانت من أعنف المعارك .

وخرج خلالها فارس من فرسان البربر فدعا إلى المبارزة فلم يخرج إليه أحد لما راو من شكلهه وهوله فأمر موسى ابنه مروان للخروج له ، فضحك منه البربري لما رآه شابا حدثا وقال له ارجع فإني لا أريد ان أعدم أباك منك ، فحمل عليه مروان حتى ألجأه إلى طرف الجبل فكر البربري ورماه ابالمزراق (وهو كالرمح القصير )فتلقاه مروان بيده في الهواء ولحقه فرماه به فخرق جنبه وسقط .

وكان الظفر للمسلمين وبسطوا سلطان الإسلام على الشمال الإفريقي كله ولم يبق إلا منطقة طنجة والريف وبعث بالأخماس على الخليفة .

وهاكم خبرا يدل على نبله وتقاه .

لما قدم كتاب موسى على عبد الملك بن مروان بالفتح أمر له بمئة ألف عطية له يلأخذها من الأخماس ، وله أن يأخذها شرعا لأن السنة أن من جاءه شيء من هذا المال بغير طلب أو استشراف نفس كان له أن يأخذه ثم يتموله أو يتصدق به ، فجمع الجند وأشهدهم أنه جعله كله معونة للمسلمين وفي الرقاب .

وكان إذا أفاء الله عليه بشيء من الأسرى نظر فيهم ومحص عقولهم وجرب فطنتهم فمن وجده ذا عقل وفطنة عرض عله الإسلام فإن أسلم أعتقه وتولاه حتى ينجب فنشأ بذلك طبقة من البربر كان منهم القواد والعلماء ولعل طارق كان من هؤلاء ، لأن أصح الأقوال أنه كان من مسلمة البربر .

لما أخضع البر كله وأتم ما بدأه عقبة وولى وجهه شطر البحر فأشأ دارا للصناعة وهي بركة عظيمة جدا حفرها في موضع أمين قريب من موضع تونس اليوم وحفر قناة أجرى فيها الماء من البحر إلى هذه البركة وأمر بصناعة مئة مركب ...

وقدم عطاء بن أبي نافع الهذلي في اسطول مصر ، وكان قد بعثه عبد العزيز لجزيرة سردانية ، فأرسى بسوسة ، فأمر له موسى بما يحتاج إليه وكتب إليه أن ركوب البحر قد مضى في هذا العام وقته وقد جاء تشرين الآخر فلا تغرر بنفسك وبالمسلمين فلم يلق عطاء بالا لكتاب موسى ولم يبال به ، وشحن مراكبه وأبحر فافتتح جزيرة صغيرة وأصاب منها مغنما وعاد فأصابته الرياح العصفة وهاج عليه البحر فغرق عطاء ومن كان معه وألقت الأمواج بمن نجا على شواطئ افريقية فلما علم موسى أرسل لهم من ينقذهم وأمر ببقية السفن فدخلت دار الصناعة وأعيد بناؤه ولما تم له اسطوله احتفل بنزول السفن إلى البحر احتفلا عظيما فأعلن أنه راكب بنفسه فركب الناس كلهم ولما اكتملوا في السفن عقد لواءه لولده عبد الله وولاه عليهم وامره بالإقلاع من ساعته فوصل إلى صقلية وفتح مدينة فيها ورجع بالنصر المؤزر والغنائم الوافرة وتعاقبت الغزوات في البحر إلى سردانية وصقلية وافتتحت الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة وغيرهما )

ثم وجه ابنه مروان ففتح السوس الأقصى ومدينتها طنجة ولم يبق بقعة في أفريقية خارجة عن الإسلام إلا سبته وكانت من أملاك اسبانية .

وكان موسى عازما على فتحها بل كان يطمح لفتح اسبانيا نفسها لكنه احب أن يمهد لذلك بمعارك فرعية خوفا من المغامرة بجمهور الجيش الإسلامي وعملا بتوجيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وأعد حملة بحرية بقيادة طريف بن عامر البربري فوصلت إلى الجزيرة التي سميت بعد ذلك جزيرة طريف وعاد سالما غانما .

فجهز حملة كبيرة من سبعة آلاف أكثرهم من البربر وكان البربر قد اسلمو وحسن إسلامهم ، فكان منها جند موسى وأعوانه في هذا الجهاد فنجحت ذلك النجاح العجيب وفتح مدنا عظاما وكاد يكتسح الأندلس كلها لولا أن موسى أمره أن يتوقف حتى يلحقه ، وكان موسى وهو القائد العام لم يرد من بعث طارق فتح البلاد بل إثارة معارك محلية للاختبار ودراسة حالة العدو وحدد لهم أمدا لا يتجاوزنه والحياة العسكرية تقوم على الطاعة فلما جاوز المدى وأوغل بجيشه الصغير حتى صار عرضة للتطويق كان مستحقا للعقوبة على ما أتى لكنه كان مستحقا ايضا للشكر على ما اصاب من نجاح ..

دخل موسى الأندلس بجيش كبير فيه ثمانية عشر ألفا نصفهم من البربر يحمي به جيش طارق ويشد أزره وكان شيخا كبيرا قد جاوز السبعين ولكنه كان كالأسد الكاسر فعبر أسبانيا ودوخها ، لم يقف امامه عدو ولم يثبت أمامه خصم . ولم يستعص عليه حصن .

ترك الجبل الذي دخل منه طارق ودخل من الموضع الذي كان معروفا إلى أيام المقري مؤلف نفح الطيب (من ثلاثمئة سنة فقط ) بجبل موسى ولا يزال يعرف بذلك على الآن في الدنيا كلها ..

ثم سلك غربي الطريق الذي سلك طارق ، فأتى أولا على شذونة فافتتحها عنوة ، ثم سار إلى قرمونة (كارامونا ) ولم يكن في الاندلس (كما في نفح الطيب ) أحصن منها ولا أبعد على من يرومها بحصار او قتال فدخلها ثم مضى إلى إشبيلية وكانت أعظم المدن شأنا واعجبها بنيانا وكانت دار الملك قبل القوط فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طليطلة وبقي رجال الدين في اشبيلية فامتنعت على موسى مدة ثم فتحها الله عليه واعتصم فلول جيش الأسبان في قلعة لقنت (آليكانت )ففتح الحصن وتوجه إلى مدينة ماردة فحاصرها ودافع عنها أهلها فعمل موسى (دبابة (عربة مغطاة بالخشب والجلود يهجمون بها على الأسوار ومنها ماله راس من حديد لنقب السور ودب المسلمون تحتها من برج على برج يهدمونه بمعاولهم فصالحه أهلها وفتحت وانتفضت اشبيلية وثار أهلها فبعث إليهم ابنه عبد العزيز فأعاد فتحها ثم توجه إلى طليطلة ، ولما لقي طارقا ووقعت عليه عينه ترجل طارق فوبخه على المخالفة ...وهم بمعاقبته ثم عفا عنه وغفر له مخافته وأقره على تقدمه وسيره لفتح شرق الجزيرة وسار هو غربا وكانا قد انتهيا من فتح مقاطعة الأندلس وقشتالة وتوجه موسى إلى الأراجون فاجتمعا أمام أسوار سرقسطة فافتتحت بقيادة موسى وسار طارق شرقا فافتتح بلنسية وبرشلونة ثم اخترق موسى جبال البرنس (البرنه) وفتح جنوبي فرنسا ووجه طارق إلى جليقية وهي الزازية الشمالية الغربية من أسبانيا ...وكان موسى عازما على أن يفته أوروبا كلها من الغرب لكن الله لم يرد ولا راد لإرادته فأقام دونه حاجزا من أمر الخليفة في دمشق باستدعاء موسى غليه ....وأنتم تعرفون بقية المأساة التي انتهت بها سيرته .

رحم الله عقبة وموسى وطارق وبعث منا أنفسا كأنفسهم وقلوبا كقلوبهم ...

**مراجع البحث**

* **1-علي الطنطاوي ، ذكريات ( الجزاء الأول ) ط1 ، دار المنارة للنشر جدة 1405هـ ، 1985م .**
* **2-علي الطنطاوي ، ذكريات ( الجزاء الثاني) ط1 ، دار المنارة للنشر جدة 1405هـ ، 1985م .**
* **3-علي الطنطاوي ، ذكريات ( الجزاء الثالث ) ط1 ، دار المنارة للنشر**
* **جدة 1405هـ ، 1985م .**
* **4-علي الطنطاوي ، ذكريات ( الجزاء الرابع ) ط1 ، دار المنارة للنشر جدة 1405هـ ، 1985م .**
* **5-مقالات متنوعة من مواقع على الانترنت .**

**6-أقوال الصحف والمجلات يوم وفاته ( الانترنت )**